عندما تقرأ الحداثة

- من خلال كتاب : " هل صدق الإغريق أساطيرهم"؟ Paul Veyne

« Les Gres ont-ils cru à leurs mythes »

د. يونس لوليدى

هناك منطلقات أراها أساسية لتأطير الحديث عن كيف قرأ المؤرخ الفرنسي Paul Veyne الميثولوجيا الإغريقية. هذه المنطلقات هي:

١- الأسطورة هي حكاية " حقيقية "، " مقدسة"، وقعت في بداية الزمن، وتصلح كنموذج للتصرفات الإنسانية، حيث إن مهمة الإنسان تكمن في إعادة القيام بالتصرف النموذجي الذي قام به الأبطال الأسطوريون. وأبطال الأسطورة ليسوا بالضرورة آلهة، وإن كانت الآلهة تلعب عادة دورا مهما في الأسطورة. وهذه الشخصيات الأسطورية، هي التي علمت الناس ممارساتهم الشعائرية الأكثر أهمية، كما علمتهم مختلف التقنيات والمؤسسات[١].

وعلى الرغم من قولنا إن الأسطورة " حكاية حقيقية ومقدسة"، إلا أنه ينبغي التأكيد على أن الأمر يتعلق بمفهومين نسبيين، فما قد يكون " حقيقيا" " ومقدسا" بالنسبة إلى حضارة ما، أو شعب ما، أو شخص ما، قد لا يكون كذلك بالنسبة إلى حضارة أخرى، أو شعب آخر، أو شخص آخر. وبذلك فإن مفاهيم أخرى كتلك التي سيثيرها Paul Veyne في كتابه مثل:

" الصدق" و " الكذب"، و " الصواب" و " الخطأ "، ستكون هي أيضا مفاهيم نسبية.

٢ - لقد تعاملت الاتجاهات الحديثة مع الميثولوجيا الكلاسيكية من خلال أربع وجهات نظر، هي:

أ- وجهة نظر ملحدة لا دينية: حيث ينطلق أصحابها من رأيين : رأي يرى أن هذه الأساطير تشهد على العبقرية الخلاقة للإنسان وللحضارات الشفهية، ورأي يرى أن هذه الأساطير ليست إلا حكايات بدون أهمية، تنتمي إلى حقبة ولت تمثل "

طفولة الإنسانية "، حقبة كان الإنسان يصنع فيها لنفسه آلهة أو قوى بحجم جهله وضعفه.

ب- وجهة نظر ملحدة لا دينية ولكنها علمية (علوم إنسانية): وتنقسم بدورها إلى قسمين : قسم يقول بأن الميثولوجيا الكلاسيكية هي نتاج خيال إنسان ما قبل – العقل وتمثل رمزية ما - قبل العقل، وهما خيال ورمزية لم يعودا صالحين بعد أن اكتسب الإنسان الفكر العقلاني.

وقسم يرى في الميثولوجيا الكلاسيكية عقائد مشتركة تنظم جماعة قديمة، وهي أيضا حكايات عقلانية، تدفع إلى فهم المنطق " البري" للعقل الإنساني. إنها حكايات ينبغي فك رموزها لا تأويلها.

ج- وجهة نظر دينية توحيدية: ترى أن بعض حكايات الميثولوجيا الكلاسيكية تتعرض لمعنى العلاقات الإنسانية الإلهية، علاقات الخالق والمخلوق، إلا أنها في الغالب في حاجة إلى إعادة تأويل لكي تتماشى مع الإيمان بإله واحد، وحذف كل ما هو " حلولي"، و " صبياني" و " شيطاني" منها.

د- وجهة نظر دينية لا توحيدية (عامة): ترى أن أساطير الميثولوجيا الكلاسيكية تبعث على التفكير في العالم الرمزي والتأويلي " المنفتح والحر"، وفي معنى الألوهية، ومعنى المقدس(٢).

وبذلك فليس الإغريق وحدهم من تأرجح بين تصديق وتكذيب أساطيرهم، وإنما الدراسات الحديثة أيضا - التي تعاملت مع الميثولوجيا الكلاسيكية - قد تأرجحت هي الأخرى بين التصديق والتكذيب، بين النظرة العلمية والنظرة الاحتقارية.

٣- إن الاتجاهات الحديثة قد قرأت الميثولوجيا الكلاسيكية من خلال أربعة مستويات هي:

أ- المستوى السردي: ويتعلق الأمر هنا بتحليل النظام النصي لأسطورة ما، وهي مهمة اللسانيين والبنيويين والأنتربولوجيين.

ب- المستوى السببي: ويتعلق الأمر هنا بوصف العمل التفسيري والتأسيسي لأسطورة ما، في مجتمع ما، أو في ثقافة ما، أو في ديانة ما. وهذه مهمة علماء الاجتماع، وعلماء الأجناس، ومؤرخي الأديان.

ج- المستوى الرمزي: ويتعلق الأمر هنا بالتعرف على الصور والرموز

وتتبع منطقية تطورها مع الفضاءات والطاقات الموجودة في أسطورة ما. وهذه مهمة الفلاسفة وعلماء النفس.

د- المستوى الديني: ويتعلق الأمر هنا بالعلاقة الحتمية الموجودة بين الأسطورة والدين، وبين الأسطورة والممارسات الشعائرية. وهذه مهمة علماء الأديان(٣).

٤- ما الذي يجعل من المؤرخ الفرنسي Paul Veyne (المزداد سنة ١٩٣٠) مؤرخا حداثيا؟

إن هذا الأستاذ الشرفي بكوليج دوفرانس، وعضو المدرسة الفرنسية لروما، والمتخصص في أثينا وروما القديمتين، قد قدم تصورا جديدا لكتابة التاريخ من خلال كتابه : (comment écrire l'histoire- essai d'épistémologie- كيف نكتب التاريخ – بحث في الإبيستمولوجيا) الصادر سنة ١٩٧١، وأعاد قراءة التاريخين الإغريقي والروماني – وفق هذا التصور الجديد للتاريخ –من خلال عدة كتب من بينها l'empire gréco-romain(الإمبراطورية الإغريقية- الرومانية) ٢٠٠٥ و sexe et pouvoir a rome (الجنس والسلطة في روما) ٢٠٠٥.

إنه يعيد قراءة تاريخ أثينا وروما من خلال الربط بين الجنس والسلطة، وبين الدين والسياسة، وبين الرشوة والسياسة، ويتحدث عن الجنس المثلي، وعن الانتحار، وعن الإجهاض، ويعيد قراءة تاريخ المدينة الكلاسيكية من خلال نظامها، حيث يتحكم الأعيان فيها عن طريق منح الشعب الخبز والألعاب، ومنح الأراضي لقدماء المحاربين، ومنح الحكام تماثيل تخلدهم.

إن التاريخ بالنسبة إلى Paul Veyne لا يخلو من الجانب الذاتي، فكل مؤرخ يقدم رؤيته الخاصة لحلقة من الماضي اختار أن يدرسها. فالسرد التاريخي يقوم على اختيارات المؤرخ التي تعكس قيمه الخاصة، والتي تسعى إلى أن تجيب عن الأسئلة التي يطرحها على نفسه.

وتكمن حداثة Paul Veyne أيضا في أنه يقدم مفهوما جديدا للمقدس وللإلهي. فإذا كان piaget يرى أن مفهوم الإلهي هو مفهوم يورث عن الأبوين، فإن Paul Veyne يؤكد أن الرضيع يكتشف مفهوم الإلهي في والديه، وبذلك فإن مفهوم الإلهي لا يوجد بالضرورة كمفهوم مسبق. إنه مؤرخ يستعين بعلم الاجتماع، وبعلم النفس، وبالفلسفة، وبالعلوم الحقة، كما أنه لا ينفي في دراسته التاريخية ما للخيال من

قيمة. فالعنوان الفرعي للكتاب المدروس: "هل صدق الإغريق أساطيرهم؟ "هو" بحث في الخيال كمكون". أي الخيال كمكون من مكونات التاريخ.

بعد هذه المنطلقات الأساسية- في اعتقادي- سأعمد إلى ترتيب قراءتي الناقدة للكتاب على شكل نقط. هذه النقط هي:

١ - ما هي الفترة التي يغطيها هذا الكتاب؟

يقول Paul Veyne : " الفترة التي سندرسها تمتد حوالي ألف سنة، من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الرابع بعد الميلاد"(٤).

وكما هو معلوم، فإنه يمكن تقسيم حياة الأساطير الإغريقية إلى ثلاثة عصور هي : العصر الملحمي، والعصر التراجيدي، والعصر الفلسفي. وفي كل هذه العصور كانت الأسطورة الإغريقية متبلورة وتامة الملامح. أي أننا لا نعرف شيئا عن " شكلها البدائي"(٥).

وعندما يبدأ Paul Veyne دراسته انطلاقا من القرن الخامس (ق.م) فمعنى هذا أنه يسقط من الحقبة المدروسة العصر الملحمي، على الرغم من أنه يحيل بين الفينة والأخرى على هومير وهيزيود. فما يهمه كمؤرخ حداثي، ليس هو الإلياذة والأوديسا في حد ذاتهما – كأقدم نصوص إغريقية في هذا المجال – ولا قصيدة " الأعمال والأيام" لهزيود، ولا قصيدة " أنساب الآلهة" المنسوبة إليه أيضا، وإنما يهمه كيف تلقى الإغريق هذه الأعمال عدة قرون بعد ظهورها.

ما يهمه هو هل صدق الإغريق هذه الإنتاجات المؤسسة للميثولوجيا الإغريقية انطلاقا من تأكيد عدد من الباحثين – وعلى رأسهم هيرودوت – أن هومير وهيزيود هما اللذان خلقا للإغريق أجيال الآلهة، وأعطياها أسماء، وعينا اختصاصاتها ووظائفها وعرفا بأشكالها(٦).

وما يهمه أيضا هو هل فهم الإغريق لماذا نسب هومير إلى الآلهة كل ما هو بذيء وخسيس عند البشر : من سرقة، ومراهقة، وخيانة، وغدر... وإن كان هذا لم يمنعه من جعل بعض الآلهة حارسة على القيم الأخلاقية السائدة في عصره.

وهل صدق الإغريق ما ذهب إليه هيزيود من أن " الآلهة والبشر لهم نفس الأصل." كما أن بدأ الدراسة من القرن الخامس (ق.م) معناه أن Paul Veyne قد أسقط من الحسبان أيضا xenophane، الذي كان يرى أن " الآلهة لم تكشف للبشر

عن كل الأشياء منذ البداية، ولكن البشر وجد الأحسن عن طريق البحث مع مرور الزمن"[٧].

فليس المهم xenophane ولكن المهم هو كيف لم يعد الإغريق يصدقون قرنا بعده أن التقنيات التي يمارسها الإنسان ليست هبة من الآلهة، أو نتيجة " سرقة بروميثيوس للنار"، وإنما نتيجة ما قامت به الإنسانية من بحث متطور على مر العصور.

لا يهتم Paul Veyne بما تحدث عنه Mimnerie de colophone (حوالي ق ٧ ق.م) من معاناة الإنسان التي تعكسها الأساطير : فقر، ومرض، وشيخوخة وحزن، إلى درجة أنه يقول: " ليس هناك إنسان لم يرسل عليه زوس ألف ألم"، ولا ما قاله معاصره Sémonide بأننا" نحن البشر نعيش كقطيع لا نعلم أي طريق سيسلك الإله ليوصل كل واحد منا إلى قدره "[٨].

لكن ما يهمه هو ما الذي دفع بندار وسوفوكل إلى القول – على غرار هذين الشاعرين بضعة قرون بعدهما – من الأفضل للإنسان أن لا يولد أصلا، وإذا ما حدث وجاء إلى العالم، فمن الأفضل أن يموت على وجه السرعة.

وما الذي دفع أفلاطون – عكس هذه الآراء- إلى القول بأن " الآلهة لا تتسبب في كل شيء وإنما تتسبب في الخير فقط"[٩].

وعندما جعل Paul Veyne دراسته تمتد إلى حدود القرن الرابع ميلادي، فمعنى ذلك أنه أدخل في الحسبان pausanias الذي جاب كل بلاد الإغريق باحثا في مكتباتها عن الأساطير بشغف، حيث صارت الأساطير، في هذه الفترة، تسكن بطون الكتب. وإن كان Paul Veyne يعترف بأنه ظلم pausanias عندما اعتقد في البداية أنه لم يسافر إلا في خياله، لكنه تأكد بعد ذلك أنه فعلا جاب الآفاق.

٢- المنهج المعتمد في هذا الكتاب :

يقول Paul Veyne بأن منهجه في البداية - فيما يتعلق بقضية تصديق أو عدم تصديق الإغريق لأساطيرهم – كان هو دراسة تعدد أطراف الاعتقاد والتصديق، انطلاقا من المتكلم، وانطلاقا من التجربة اليومية. غير أنه تنبه إلى أن هذا الأمر يقوده بعيدا عن مركز اهتمامه فغير منهجه في الدراسة، حيث آمن بأنه عوض

الحديث عن الاعتقاد والتصديق، ينبغي الحديث عن الحقائق، وأن الحقائق نفسها هي خيالات. ويؤكد Paul Veyne- وفق هذا التصور المنهجي الجديد- أنه ليست نظرتنا إلى الأشياء هي التي تتغير، وإنما حقائق الأشياء نفسها هي التي تختلف باختلاف العصور. وبذلك فالحقيقة ليست تجربة واقعية بسيطة، وإنما هي تجربة تاريخية. كما أنه لا يريد أن يقول – من خلال تصوره المنهجي – بأن الخيال ينبئ بالحقائق المستقبلية، وبالتالي ينبغي أن يمسك بسلطة الأشياء، وإنما يسعى إلى القول بأن الحقائق هي أصلا خيالات، وبأن الخيال ممسك بسلطة الأشياء منذ البداية. لذلك فالحضارات تتوالى، لكنها لا تتشابه، والإنسان لا يعثر على الحقيقة، وإنما يصنعها كما يصنع تاريخه(١٠).

وإذا كان هذا هو التصور العام للمنهج الذي تقوم عليه دراسة Paul Veyne، فإنه لا بد من الإشارة إلى أن هذا المنهج يقوم على عنصرين أساسيين هما:

- **العنصر الأول:** طرح عدد كبير من الأسئلة طيلة الكتاب، انطلاقا من عنوان الكتاب نفسه ولعل من أبرز هذه الأسئلة:

- كيف يمكن أن نصدق أنصاف الأشياء، أو كيف يمكن أن نصدق أشياء متناقضة؟
- ما هي الأسطورة ؟ هل هي تاريخ متدهور؟ أم تاريخ مضخم؟ أو مجرد تخريف جماعي؟.
- هل ميز الإغريق بين ما اعتبروه حقيقيا، وبين اختلاقات شعراء كانوا يرغبون في تسلية جمهورهم؟.
- وإذا كان الإغريق قد آمنوا حقيقة بهذه الأساطير، فهل عرفوا -على الأقل – كيف يميزون بين الحكاية وبين المتخيل؟

هذه نماذج للعديد من الأسئلة التي طرحها Paul Veyne في كتابه، والتي أجاب عن بعضها مباشرة، وجعل بعضها الآخر مقدمة لفصول كتابه، في حين ترك بعضها الآخر معلقا.

- **العنصر الثاني:** هو المقارنة بين الإغريق وبيننا في عدة نقط، لعل من أبرزها المقارنة بين طريقة كتابتهم وطريقة كتابتنا للتاريخ، ثم المقارنة بين مفهومهم ومفهومنا للأسطورة. ففيما يتعلق بالمقارنة الأولى، فإن الطريقة المعاصرة

للبحث التاريخي تقوم أساسا على التمييز بين المصادر الأصلية، وبين المراجع الفرعية أو ما يسميه A.D Monigliano " مراجع اليد الثانية " (Second Hand) [١١] ، في حين أن المؤرخين الإغريق لم يعطوننا إلا نادرا إمكانية معرفة ما إذا كانوا يميزون بين المصادر الأساسية، وبين المراجع الفرعية، لأن المؤرخ الإغريقي لم يكن يذكر مراجعه إلا ناذرا.

أما على مستوى المقارنة بيننا وبين الإغريق فيما يتعلق بمفهوم الأسطورة، فإن Paul Veyne يرى أننا نحيي في الأسطورة تاريخا ضخمته " عبقرية شعبية"، ونرى فيها تضخيما لحدث ملحمي كبير، في حين يرى الإغريق أن هذه الأسطورة هي حقيقة متدهورة نتيجة " السذاجة الشعبية "، حتى وإن كانت لها نواة تاريخية أصلية، وحفلت ببعض التفاصيل الصغيرة الحقيقية مثل أسماء الأبطال وسلالاتهم.

٣- مفهوم الأسطورة عند Paul Veyne:

لعل أهم ما يميز المفهوم الذي يتبناه Paul Veyne للأسطورة، هو أنه يرى فيها " جنسا أدبيا شعبيا جدا". إنها على الخصوص جزء من الأدب الشفهي، إنها أدب ما قبل –الأدب. إنها ليست حقيقية ولا متخيلة لأنها خارج عالم التجربة، إنها سرد لكنه مجهول المصدر يمكن التقاطه وترديده، لكن دون أن نكون نحن مؤلفيه.

ويرى Paul Veyne أن الأسطورة الإغريقية، قبل أن تضع قناع التاريخ، كانت شيئا آخر، لم تكن تتعلق بإيصال ما تمت رؤيته، لكن بتكرار ما كان " يقال " عن الآلهة. وتتميز الأسطورة بأن الذي يرويها يستعمل الخطاب غير المباشر لإيصال خطابه الخاص، من خلال : " يقال إن ..." أو " تحكي ربة الشعر أن ..."فعندما يتعلق الأمر بالآلهة والأبطال يصبح المصدر الوحيد في الأسطورة هو : " يقال". وهو مصدر له سلطة غريبة.

والأسطورة بالنسبة إلى Paul Veyne ليست عالم فكر متميز، إنها ليست أكثر من معرفة بواسطة المعلومات. وهذه المعلومات يتم تلقيها على " ذمة الآخرين".

وهو يرى أن جوهر الأسطورة لا يكمن في أن تكون معروفة لدى الجميع، ولكن جوهرها يكمن في أنه يفترض فيها أن تكون معروفة لدى الجميع حتى وإن لم تكن معروفة عموما، لذلك يقول أرسطو:" حتى المواضيع المعروفة، ليست معروفة إلا من طرف قليل من الناس"[١٢].

ويستعملPaul Veyne مصطلح أسطورة « Mythe » مرادفا لمصطلح « Legende » وهو ما أترجمه شخصيا " بالحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة"(١٣)- عكس الترجمات المتداولة في الثقافة العربية مثل خرافة، وحكاية، وأسطورة – وإن كنت لا أشك في أن Paul Veyne قد استعمل مصطلح « Legende » بالمعنى الذي قصدته في ترجمتي، إذ أنه كلما استعمل مصطلح « Mythe » إلا وربطه بالعجائز والمربيات والنحويين والخطباء، وكلما استعمل مصطلح « Legende » إلا وربطه بالمؤرخين الإغريق القدماء. ولا يسوغ هذا الربط إلا إذا رأينا أن ما نتحدث عنه هو تاريخ، أو على الأقل يأخذ مظهر التاريخ. كما أن Paul Veyne يبدأ باستعمال مصطلح « Legende » بعد أن يقول بأن الأسطورة وضعت قناع التاريخ.

٤- المؤرخ الإغريقي القديم و الأسطورة:

يؤكد Paul Veyne أن المؤرخ الإغريقي القديم في تعامله مع " الحكاية التاريخية الناقصة أو المحرفة « Legende » لم يكن يضع هوامش لكتابته التاريخية، لأنه كان يريد أن يصدق وكفى، (إلا إذا كان فخورا بكونه سيقدم نصا ناذرا أو مؤلفا مجهولا، وهذا النص أو هذا المؤلف يشكل في حد ذاته معلمة سيرجع إليه الفضل في الكشف عنها).

كان المؤرخ الإغريقي القديم- حسب Paul Veyne يحكي التاريخ جامعا كل ما أكده الذين سبقوه دون أن يتساءل " إن كان الأمر حقيقيا؟ ". فقد كان يقف عند حدود حذف بعض التفاصيل التي كانت تبدو خاطئة أو بالأحرى خارقة وغير محتملة الوقوع. فقد كان يفترض بأن سابقيه كانوا يقولون الحقيقة، حتى ولو عاش سابقوه عدة قرون بعد الحدث الذي يحكونه (فتراثهم الشفهي كان موجودا، وكان يعتبر حقيقة) (١٤).

فالمؤرخ القديم يصدق أولا، ولا يبدأ بالشك إلا عندما يتعلق الأمر بتفاصيل لم يعد قادرا على تصديقها. وإذا لم يكن المؤرخ الإغريقي القديم يذكر السلطات التاريخية السابقة عليه فلأنه كان يعتبر نفسه سلطة تاريخية قوية.

ويرى Paul Veyne أن احترام المؤرخين القدماء للموروث الشفهي الذي نقله إليهم سابقوه راجع إلى أن التاريخ لم ينشأ عند الإغريق من " الجدال" – كما هو الأمر في وقتنا الحاضر- وإنما نشأ من البحث. وهذا هو المعنى الحقيقي في رأيه –

للكلمة الإغريقية « Historia ». ولم يكن المؤرخون القدماء يعتقدون أنهم يعبرون عن الحقيقة " الكاملة"، وإنما كان على قرائهم أن يشكلوا فكرتهم الخاصة عن هذه " الحقيقة". فالجمهور الذي كان يتابع كتابات المؤرخين القدماء كان مركبا : جزء منه يبحث عن التسلية فقط، وجزء آخر يقرأ التاريخ بعين أكثر نقدا، وجزء ثالث من محترفي السياسة والاستراتيجيات. وكل مؤرخ يقوم باختياراته: هل يكتب للجميع مع مراعاة خصوصيات بعض الشرائح ؟ أم يتخصص – كما فعل Thucydide– في المعلومات التقنية " الصحيحة " التي تتحول إلى معطيات يستخدمها السياسيون والعسكريون.

وإذا كان هيرودوت يميل إلى أن يسوق مختلف المعلومات المتناقضة التي استطاع أن يجمعها، فإن Thucydide لم يكن يفعل ذلك على الإطلاق، وإنما كان يحكي المعلومات التي كان يعتقد أنها " صحيحة"، ويتحمل مسؤوليته فيها. أما Pausanias فكان يفضل أن يبدأ حكيه للتاريخ الأسطوري أو للأسطورة التاريخية بعبارات مثل : " علمت أن..." أو " حسب مصادري..." وبذلك كان يحمل المسؤولية لمصادره. وهكذا يرى Paul Veyne أنه عندما يتعلق الأمر بالنسبة إلى المؤرخ القديم ليس بإيداء شك عام حول مجموع الأساطير، وإنما يتعلق الأمر بإيداء رأي أو حكم محدد في قضية خاصة، ويجعل اسمه ضمانة لصدق هذه الحلقة من الأسطورة أو تلك، فإنه يعود إلى التصديق، ويعمل على إنقاذ العمق الحقيقي الموجود في هذه الأسطورة[١٥].

٥- الأسطورة والطفولة:

يرى Paul Veyne أن علاقة الإغريقي بالأسطورة كانت تبدأ منذ الطفولة. فالمربيات كن يحكين الأساطير للأطفال. لقد كن يحدثنهم عن الآلهة طبعا- لأن الإيمان والعقيدة كانا يقتضيان ذلك- كما كن يخفنهم بالحديث عن الغيلان وعن وحوش البحر الأسطورية. وكن يحكين – من أجل أنفسهن – وهن يبكين، حكايات عاطفية. لكن السؤال الأساسي هو : هل كن يحكين لهم الدورات الأسطورية الكبرى: كأساطير طيبة، وأوديب، وهرقل؟ يؤكد Paul Veyne أن الأطفال (صبية وبنات) كان عليهم أن ينتظروا الدخول إلى المدارس ليتعلموا الدورات الأسطورية الكبرى على يد النحويين، كما يشير Paul Veyne إلى مسألة أساسية قلما انتبه إليها الدارسون، وهي أن البنات كن يذهبن إلى المدارس أيضا، أي أن المدارس كانت مختلطة، وكن يأخذن أيضا دروسا في الأساطير، غير أن الصبية كانوا يعمقون أكثر

معارفهم بالأساطير على يد الخطباء، أما البنات فكان تمدرسهن يقف قبل أن يصلن إلى مرحلة التعلم على يد الخطباء.

ويسوق Paul Veyne مثالا على علاقة الأطفال بالأساطير، حيث يسأل عامل في كرمة philostrate في مؤلفه " البطل" : " متى لم تعد تصدق الأساطير؟" فيجيب philostrate

أو الناطق باسمه : " منذ أن صرت مراهقا، لأنني عند ما كنت طفلا، كنت أصدق هذه الحكايات، فمربيتي كانت تمتعني بهذه الحكايات، وكانت تصاحبها بأغنية جميلة، بل إن بعض هذه الحكايات كان يبكيها، لكن عندما صرت شابا، فكرت أنه لم يعد بالإمكان قبول هذه الحكايات بسهولة"(١٦).

وعندما ينعت أفلاطون الأساطير بأنها " حكايات النساء العجائز" فإنه على الرغم من أن هذا النعت فيه حمولة قدحية، إلا أنه دليل على أن النساء العجائز كن يحكين الأساطير للأطفال. لكن على الرغم من أن كل الأطفال كانوا يعرفون الأساطير، إلا أن الفرق بين الأطفال الذين دخلوا المدارس والأطفال الذين لم يدخلوها، أن الذين دخلوها كانوا على علم بكل تفاصيل الأساطير بفضل النحويين والخطباء.

٦- مفهوم الحقيقة والكذب عند الإغريق:

يؤكد Paul Veyne أن الإحساس بالحقيقة عند الإغريق كان كبيرا وواسعا إلى درجة أنه يضم بسهولة الأساطير. و " الحقيقة" عندهم تقول عدة أشياء إلى درجة أنها تحتضن أدب الخيال. كان الإغريقي ينظر إلى عوالم الأسطورة على أنها حقيقية بمعنى أنه لم يكن يشك فيها، لكنه لم يكن يؤمن بها كما يؤمن بالأشياء التي تحيط به.

فالذين عاصروا هومير وهيزيود وبندار كانوا يعتقدون أن هؤلاء الشعراء كانوا يحكون أمورا حقيقية بالمقارنة مع التجربة اليومية، وبالمقارنة مع الذي يحكي. وما كان غريبا عن التجربة اليومية لم يكن بالنسبة إلى الإغريقي صوابا ولا خطأ بل لم يكن حتى كذبا، مادام الذي يحكيه لم يربح من ورائه شيئا، ولم يؤذ به أحدا. فالكذب الذي لا فائدة من ورائه ليس خداعا(١٧).

وهكذا فمن الإغريق من فهم أن الشعراء كانوا يخلطون الحقائق بالكذب أو

الكذب بالحقائق ومنهم من اعتبر أن الأمر يقوم على تعارض بين الملحمة التي تكذب وبين الشعر التعليمي الذي يقول الحقيقة.

لكن عندما ظهر البحث التاريخي، بدأ – عكس الأسطورة – يطرح مفهوم الحقيقة والكذب، وبدأ الباحثون في التاريخ يرون أن الأسطورة لا بد أن تلائم باقي الحقائق بما أنها تقدم نفسها كحقيقة، وبذلك لم يعودوا يتساهلون مع المعلومات، وإنما صاروا يقومون بتشريحها ويتأكدون من صحتها. ومع ذلك ضل عدد من الإغريق يستمعون بتساهل إلى " الأساطير الحقيقية"، وإلى اختلافات الشعراء، ولم تكن تصدمهم الخيالات التي لا تجني فائدة من فصل الحقيقة عن الكذب، والتي لم تكن تخضع لسلطة أي علم من العلوم.

وهكذا وجدنا جمهورا يطالب بالحقيقة، وجمهورا آخر لا يطالب بها، ووجدنا تعايشا غير سلمي بين برنامجين للحقيقة: أحدهما كان ناقدا للأساطير، والآخر كان محترما لها. وهذا الصراع جعل أنصار البرنامج الثاني يمرون من الاحترام العفوي إلى الإخلاص للذات، فقد كانت لهم " قناعات" وكانوا يطالبون باحترامها. وبذلك لم تعد بالنسبة إليهم فكرة الحقيقة هي التي في الواجهة، وإنما احتلت المرتبة الثانية بعد " احترام المعتقد".

ويسوق Paul Veyne نصا لنيتشه، يعكس في نظره، كيف تعامل الإغريق مع مفهومي الحقيقة والكذب في تلقيهم للأساطير. يقول نيتشه : " يسمح للسارد الملحمي أن يكذب، لأنه لا يخشى أية عاقبة وخيمة من كذبه. لذلك فالكذب مسموح به حيث سيحقق التزيين القائم على الجمال والجلال، لكن شريطة أن لا يسبب أذى (...) إن كبار الفلاسفة الإغريق عاشوا داخل هذا الحق في الكذب"[١٨] .

٧- مواقف مختلفة من الأسطورة:

يقدم Paul Veyne طيلة كتابه عددا من المواقف المختلفة من الأسطورة، أفرزها التأرجح بين مفهومي الحقيقة والكذب، عبر عنها مؤرخون وفلاسفة وخطباء وشعراء تراجيديون.

فهذا هيرودوت حين تحدث عن زعم الفرس بأن جدهم الأسطوري هو Persée يقول : " من جهتي، واجبي أن أقول ما قيل لي، وليس أن أصدق كل شيء. وما أقوله الآن يسري على كل مؤلفي"[١٩]. ويعتبر Paul Veyne أن قول هيرودوت بضرورة عدم تصديق كل ما يقال له، هو اعتراف متأخر لأنه لم يرد إلا

في الكتاب السابع من كتبه التسعة.

وهذا Pausanias يقول : " في بداية أبحاثي لم أكن أرى في أساطيرنا إلا تصديقا ساذجا، لكن الآن بعد أن بدأت أبحاثي تهتم بأركاديا، أصبحت أكثر حذرا. ففي العصور القديمة عبر أولئك اللذين نسميهم الحكماء، بواسطة الألغاز أكثر من التصريح. وأعتقد أن الأساطير المتعلقة بكرونوس تدخل في إطار هذه الحكمة"(٢٠).

ويعتبر Paul Veyne أن مقولة Pausanias هي اعتراف متأخر أيضا لأنها لم ترد إلا في الكتاب الثامن من كتبه العشرة. كما أن هذه المقولة تعني أنه لم يصدق شيئا من الأساطير الكثيرة التي أوردها طيلة الثمانمائة صفحة السابقة من مؤلفه.

وهذا بندار نفسه يعبر عن موقف متذبذب من الأساطير، حيث يقول: " لا نجد عبر الأرض ولا عبر البحر الطريق التي تقود إلى احتفالات شعوب الشمال، ومع ذلك فإن Persée الشجاع قد ذهب إليهم في الماضي، وكانت أثينا هي مرشدته (...) من جهتي لا شيء يدهشني أو يبدو لي مستحيلا عندما تنجزه الآلهة"(٢١). ويرى Paul Veyne أن بندار حتى وإن كان له موقف محترم للأساطير، إلا أن بعض تعابيره يخونه، فيبدو وكأنه غير مصدق تماما لكل ما يحكيه.

وفي مسرحية " الفرسان" لأرستوفان نجد عبدا يائسا من وضعه يقول لعبد آخر : " لم يبق لنا إلا أن نرمي بأنفسنا عند أقدام صور الآلهة "، فيجيبه العبد الآخر: " صحيح قل لي هل تعتقد فعلا أن هناك آلهة؟ "(٢٢).

ويتساءل Paul Veyne هل هذه مواقف شخصيات أرستوفان أم هي مواقف أرستوفان نفسه من الأساطير؟

وهكذا يبدو هؤلاء وغيرهم أحيانا متحفظين اتجاه الأساطير في مجموعها، وأحيانا أخرى يعودون إلى تصديقها. وتتحقق عودتهم هاته كلما رغبوا في أن يصبحوا مفكرين جادين ومسؤولين أمام حلقة من أسطورة ما. ويتساءل Paul Veyne هل يتعلق الأمر بسوء نية؟ ويجيب بالنفي، فالأمر بالنسبة إليه يتعلق بتذبذب بين معيارين للحقيقة أولهما رفض العجيب في الأساطير، وثانيهما الاعتقاد الجازم بأنه من المستحيل أن يكون هناك " كذب كلي" في هذه الأساطير، وإنما الأمر يحتمل كذبا جزئيا.

٨- **خلاصات:** يمكن تسجيل أبرز الآراء التي أوردها Paul Veyne في كتابه على شكل خلاصات من بينها:

١- هل صدق الإغريق أساطيرهم؟ الإجابة ليست بالسهلة لأن "صدق" تعني عدة أشياء. لم يصدقوا كلهم بأن Thésée قاتل Minotaure لأنهم كانوا يعرفون أن الشعراء " يكذبون"، ومع ذلك فهذا لا يعني أنهم كذبوا هذه الأساطير، فجميعهم يؤمن بالوجود التاريخي لـ Thésée لكن ينبغي " تشذيب الأسطورة بواسطة العقل".

٢- بالنسبة إلى الإغريق، ليس هناك مشكل فيما يخص الأساطير، وإنما هناك مشكل العناصر غير محتملة الوقوع التي تحتوي عليها الأسطورة.

٣- يرى Paul Veyne أن التقسيم الثلاثي الذي قدمه Varron للآلهة تقسيم أساسي ويساعد على فهم كيفية تعامل الإغريق مع آلهتهم وبالتالي مع أساطيرهم. وهكذا ميز varron بين آلهة المدينة التي كان الإغريق يقيمون لها الطقوس والشعائر، وآلهة الشعراء (أي آلهة الأساطير)، وآلهة الفلاسفة.

٤- إن نقد الأسطورة نشأ بواسطة البحث التاريخي ولم ينشأ نتيجة الحركة السفسطائية التي أدت بالأحرى إلى نقد الدين والمجتمع، كما أن نقد الأسطورة لا علاقة له بظهور علم الكون الفيزيائي (la cosmologie physique). ولعل أول خطوة في هذا النقد كانت هي حذف التدخل المرئي للآلهة من التاريخ. صحيح أنه لم يكن هناك شك في وجود هذه الآلهة لكن فبما أن الآلهة في مختلف الديانات تضل متخفية، وبما أن الأمر كان كذلك حتى في بلاد اليونان، قبل توظيف هومير للعجيب في ملحمتيه، فإنه كان لابد من إعادة الأمور إلى أصولها، وحذف التدخل المرئي للآلهة من الأسطورة حتى تصبح تاريخا.

٥- كان هناك نقد بطبيعة الحال للمعتقدات الدينية، لكنه كان مختلفا عن نقد الأساطير، حيث وجد من المفكرين من نفى الوجود الفعلي لبعض الآلهة أو لكل الآلهة، لكن أغلب الفلاسفة والعقول المثقفة لم يكونوا ينتقدون الآلهة أو ينفون وجودها، وإنما كانوا ينتقدون الأشياء التي تلصق بالآلهة فتحط بالتالي من شأنها وجلالها. وإذا كان نقد المعتقدات الدينية يسعى إلى إنقاذ فكرة " الآلهة " من خلال تنقيتها من كل المعتقدات الساذجة والخرافات ، فإن نقد الأسطورة كان يسعى إلى إنقاذ فكرة " الأبطال " من خلال جعل وجودهم محتمل الوقوع، كما هو الأمر بالنسبة إلى الآدميين العاديين.

٦- دعا كل من أفلاطون وبلوتارك إلى مواجهة الأسطورة باللوغوس وإرجاع السيرة

الذاتية للبطل الأسطوري إلى نواتها التاريخية، غير أن تشذيب الأساطير باللوغوس لا يعني – حسب Paul Veyne - أنهما يتعارضان كما يتعارض الخطأ مع الحقيقة وإنما يعني تحويل جيل الأبطال إلى آدميين عاديين، وجعل أجيالهم متناغمة مع الأجيال الآدمية، أي متناغمة مع التاريخ ابتداء من حرب طروادة.

٧- تغير كل شيء في العصر الهلليني، فالأدب أراد أن يصبح أدبا عالما، ليس معنى ذلك أنه سيصبح حكرا على النخبة، وإنما سيتطلب من الجمهور أن يبذل جهدا ثقافيا. فصارت الأسطورة ميثولوجيا (أي علما للأساطير)، وحتى وإن ظلت للشعب أساطيره إلا أن الميثولوجيا التي صارت عالمة بدأت تبتعد عنه وصارت دليلا على نوع من الشرف المعرفي الذي يعلي من مرتبة صاحبه.

٨- كان هناك في العصر الهلليني جمهور مصدق، لكنه مثقف، وكان يطالب بعجيب جديد، لا يبقى فوق التمييز القائم بين الحقيقة والخطأ، ولا يبقى خارج الزمن. كان هذا الجمهور يرغب في أن يصبح العجيب " علميا " أو بالأحرى تاريخيا لأنه لم يعد هناك مجال لتصديق العجيب على الطريقة القديمة، لذلك صار لزاما على الأسطورة إن كانت تريد البقاء حية أن تأخذ مظهر التاريخ.

٩- احترم الكتاب في العصر الهلليني - في تعاملهم مع الأسطورة – ثلاث قواعد أساسية :

أ- عدم إصدار أي حكم على العجيب والخارق.

ب- الإقرار بالجذور التاريخية للأسطورة.

ج- عدم الخوض في التفاصيل.

١٠- قد يبدو أن هناك نوع من التناقض في تعامل الإغريق مع أساطيرهم، فمن جهة وجدت بعض العقول التي لم تؤمن بوجود الآلهة، لكن من جهة أخرى لا أحد أبدا شك في وجود الأبطال، والسبب راجع إلى أن الأبطال لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا بشرا عاديين أضفت عليهم عبقرية أو سذاجة الشعب ملامح عجيبة. وبذلك لا يمكن الشك في وجود الأبطال لأنه لا يمكن الشك في وجود البشر، في حين لم يكن الكل مستعدا لتصديق وجود الآلهة لأنها لا ترى بالعين.

وهكذا يخلص Paul Veyne إلى أن " عدم التصديق" خاصية إغريقية

بامتياز، وقد تنبه الإغريق أنفسهم إلى هذه الخاصية منذ القدم، حيث يقول هيرودوت : " منذ القديم تميزت بلاد الإغريق عن الشعوب البربرية، بأنها أكثر صحوة، وأكثر تخلصا من سرعة التصديق الساذجة"(٢٣).

الهوامش:

١- يونس لوليدي : الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية – الطبعة الأولى ١٩٩٦ – أنفوبرانت – ص ٣٩.

2- Vladimir Grigorieff : Mythologies du monde entier –Marabout Université- Alleur- Belgique- 1987 – P24.

3-Jacques Vidal : Mythe : in : Dictionnaire des religions- Directeur de la publication : Paul poupard – P.U.f-Paris-1985-p1173.

4-Paul Veyne : les Grecs ont-ils cru à leurs Mythes ? essai sur l'imagination constituante- Editions du seuil 1983-p53.

5-Pierre Grimal : la mythologie grecque – que sais – je ? N° 582-11 édition P.U.F- Paris -1984 –P100.

6-E.O James : Mythes et rites dans le proche – Orient ancien – traduit de L'anglais par René-Jouan-Bibliothèque- Payot-1965-p 267.

7-xenophane, cité par pierre vidal-Napuet : in : la Grèce ancienne- Tone 2- L'espace et le temps – Editions du seuil-Paris-1991-p147.

8-cité par Mircea Eliade, in : Histoire des croyances et des idées religieuses- Payot- Paris-1984- p 272.

9-Platon, cité Par Vladimir Grigoriff, in : Mythologies du monde entier p82.

10-Paul Veyne : les Grecs ont-ils cru à leurs mythes ? p12.

11-A.D.Monigliano, cité par G. Huppert, in : l'idée de l'histoire parfaite- Flammarion- Paris -1973- p7.

12-Aristote, cité par Paul Veyne, in : les Grecs ont –ils cru à leurs mythes ? p64.

١٣- يونس لوليدي : الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية ص ٢٩.

14-Paul Veyne : les Grecs ont-ils cru à leurs mythes ? – p19.

15-Ibid- p20.

16-Philostrate, cité par Paul Veyne – Ibid- p 54.

17-Ibid- p20.

18-Nietzsche, cité par Paul Veyne- Ibid-p152.

19-Hérodote, cité par Paul Veyne- Ibid- p 24.

20-Pausanias, cité par Paul Veyne - Ibid- p 24.

21-Pindare, cité par Paul Veyne -Ibid- p 40.

22-Aristophane, cité par Paul Veyne- Ibid- p 53.

23-Hérodote, cité par Paul Veyne – Ibid- p 43.